السنوسيون

طرابلس الغرب التي استعرت نار القتال بسببها بين الدولة العثمانية وايطاليا بلاد قاحلة وصحارى مترامية الاطراف متسعة الاكناف تبلغ مساحتها مليوناً و ٥١ ألف كيلومتر مربع وعدد سكانها لا يزيد على المليون بكثير . وقد عرف القراء من الصحف اليومية معظم ما تهم معرفته بشأنها ولكننا أحببنا ان نذكر لهم شيئاً عن قبائل السنوسيين الضاربة في كل شمالي افريقيا والتي كثر ذكرها في معرض الكلام عن تلك الحرب ، فنقول :

ان قبائل السنوسيين من أشهر قبائل الغرب واكثرها نزوعاً الى القتال وأشدها شغفاً بخوض غمرات الحرب ، وهي عزيزة الجانب نافذة الكلمة ، تكاد بنظامها تحاكي امارة من الامارات ، وبشجاعة افرادها تفوق الرجال ، وهي منتشرة في معظم تلك البقعة من افريقيا ، وقد لاقت منها فرنسا في الجزائر أهوالاً . ولا عجب اذا كانت قبائل السنوسيين ذات دربة في القتال وحنكة في الحرب فان موقع البلاد الضاربة فيها على طريق الغزاة الفاتحين . فدعاها ذلك الى المكافحة مدة عشرين قرناً ونيف . واذا كانت قد هدأت وسكنت في النصف الثاني من القرن المنصرم فالسبب في ذلك راجع الى شدة ما أصابها من جراء الحملة الفرنسوية الاولى سنة ١٨٥٢ وخصوصاً الحملة الثانية سنة ١٨٥٧

وتشهد باهمية ذلك الموقع من الوجهة العسكرية الحركات الحربية المتعددة التي جرت في تلك الانحاء . ففي هذه الاصقاع كان ممرّ الرومانيين والقندال والعرب ، وفيها كان معترك المراودة والمهاودة والمراونة بعد الفتح

الاسلامي ، كما ان سلاطين تلمسان وفاس قد تنازعوا السيادة هناك مدة ثلاثة قرون . وقام بعد ذلك مولاي اسماعيل معاصر لويس الرابع عشر ملك فرنسا واقفاً في وجه الاتراك الفاتحين في ذلك الموضع نفسه

وفي ذاك العهد كان السنوسيون منحازين الى صاحب الجزائر . ولربما كان مولاي اسماعيل اول من تمكن من اخضاعهم بعد حملتين قويتين حملهما عليهم سنة ١٦٧٩ و ١٦٨٠ فخرّب دورهم واقتلع آثارهم وانزل بهم الويلات حتى ساءت حالهم وتضعضعت اركانهم ، ولم يسالمهم الا بعد ان سلموا سلاحهم وخيولهم وبنى في جبالهم ثلاثة حصون منيعة

واول مقابلة في ساحة القتال بين الفرنسويين والسنوسيين كانت سنة ١٨٤٤ وكان عددهم الاكبر وبأسهم الأشد في جيش سيدي محمد الذي انتصر عليه المارشال بوجو في معركة إسلي . وقد كان هذا الانتصار عظيماً ، لكن المعاهدة التي تلته جرّت على الفرنسويين كل ما لاقوا بعد ذلك من الصعاب في تلك الامصار ، لانهم كانوا يجهلون تخطيط البلاد فقبلوا بتحديد التخوم الفاصلة كما عرضت عليهم فاصبح قسم من القبائل داخلاً في منطقة الحماية الفرنسوية وظل قسم كبير خارجاً عنها ، فصعب على فرنسا توطيد سلطتها في مستعمراتها الافريقية

على ان الجيوش الفرنسوية لم تتقيد في حملة ١٨٥٢ بنص المعاهدة ولم تحترم تلك الحدود . فقد جاء في تاريخ الجزائر تأليف بليسيه ده رينو ان الجنرال ده مونتوبان لم يخشَ ان يجتاز التخوم الفاصلة ، بل تعدّاها متتبعاً آثار السنوسيين ، وقد فعل الجنرال ماك ما هون فعله من جهة

حدود تونس دون ان يقوم من يعترض . وذلك لان أنظـار الدول في ذاك العهد لم تكن متجهة الى ذلك القسم من افريقيا ، ولم يحتج السلطان عبد الرحمن صاحب مراكش لأن فرنسا كانت قد هددته بالزحف على بلاده اذا صدر منهُ ما يقلقها

اما السنوسيون فدفعتهم جرأتهم الى شن الغارة على القبائل الراضخة للفرنسويين ، فجندت فرنسا ٤,٥٠٠ مقاتل بين مشاة وفرسان . وزحفت الحملة الى جهة تخوم مراكش وكانت القبائل قد حشدت هنـاك جيشاً لا يقل عن ٦,٠٠٠ محارب . ولكنهُ لم يهاجم الفرنسويين بل اكتفى بمناوشات صغيرة مدة من الزمن ، ولما عولوا على الهجوم أصابهم الفشل وعادوا خاسرين . هذا أهم ما كان في حملة سنة ١٨٥٢

اما حملة ١٨٥٩ فانها كانت اكبر أهمية . وسببهـا ان رجلاً في بلاد الزاوية اسمه سيدي محمد بن عبد الله قام ونفخ في صدور السنوسيين روح الثورة والتمرد . فهجموا في شهر اغسطس من تلك السنة على سيدي ظاهر وكسروا الجنود الفرنسوية المرابطة هنالك وسلبوا القبائل الموالية لها . فلعبت برؤوسهم خمرة الانتصـار وجمعوا جموعهم حتى بلغوا السبعة آلاف وهجموا على وادي التيولي فدحرتهم الجنود الفرنسوية فتقهقروا الى ما وراء التخوم واشتدت الفوضى في البـلاد فعزمت فرنسا على ان تضرب الضربة القاضية فارسلت جيشاً يناهز العشرين ألف مقاتل بقيادة الجنرال ده مارتنپري فتحصنت القبائل في الجبال والمضايق . ولكن لما سدت في وجهها أبواب الفرج حضر الحاج ميمون أحد زعمائهم الى

مضرب الجنرال ده مارتنيري طالباً الأمان والسلم وقدم الرهائن ورضي بدفع ضريبة مئة فرنك عن كل بندقية

هذا بعض ما جرى لفرنسا مع السنوسيين ، وايطاليا الآن في اول عهد مناوشاتها معهم ، وهي لا شك لاقية من قوة باسهم وشدة مراسهم ما يحملها الخسائر الباهظة بالمال والرجال

ونختم هذه اللمحة التاريخية الوجيزة بما كتبهُ عن السنوسيين أحد الصحافيين الافرنج الذين زاروا طرابلس الغرب منذ مدة قريبة قال ما ملخصه :

. . . . وبينما كنت سائراً في أحد الشوارع سمعت ضجة وأصواتاً تكاد تشق الفضاء وطبولاً تضرب ومزماراً يعزف ووقع حوافر جياد ، فوقفت لأفتح طريقاً لجمهور كبير عن الاولاد والبرابرة والسودانيين ، وما هي الا برهة وجيزة حتى علمت ان هذه الحفلة أُقيمت لشرذمة من فرسان السنوسيين قدموا الى طرابلس . . . سار الفرسان أربعة أربعة بنظام مدهش وترتيب عجيب : وجوه سوداء ورؤوس تعلوها عمائم بيضاء وقد التحفوا باردية بيضاء ايضاً (برانس) ، وبنادقهم مربوطة بسروج خيولهم والرماح على اكتافهم والسيوف متدلية الى جانبهم . سار موكب هؤلاء الفرسان بترتيب عسكري جميل ، وكانت ركاب الفارس ملتصقة بركاب الفارس المحاذي له ، وخيلهم تسير بخطوات منسقة على نقرات الطبول ونغمات المزمار . وقد وقفت عند مرورهم جامداً لا ابدي حراكاً وقد دهشت لجمالهم الرائع وسوادهم اللامع وصحة أبدانهم وطول قاماتهم ، وأيقنت انه لو تمّ تنظيمهم على الطرق العسكرية الحديثة لحاربوا

مملكة عظيمة وحدهم . وقد رأيت هؤلاء السنوسيين ايضاً في احدى قهوات طرابلس ، رأيتهم جلوساً وقد خيمت عليهم السكينة ، فلا ضجة ولا هرج بل كانوا كأنهم خارجون للانتقام وعلامات الرزانة والرصانة بادية على وجوههم . وقد جلست الى جانبهم أتأمل حالتهم ، وما هي الا هنيهة حتى رأيتهم وقفوا وبسرعة البرق امتطوا صهوات خيولهم ونظموا صفوفهم وساروا تكتنفهم الهيبة والوقار . . . »

هذا بعض الشيء عن السنوسيين الذين تعتمد عليهم الدولة الآن في رد غارات الطليان عن طرابلس الغرب

الوصايا العشر

للنساء المتزوجات[1]

وضع احدهم الوصايا العشر الآتية وهو يعتقد ان فيها سعادة النساء المتزوجات . فلتجربها قارئاتنا الكريمات وليعرّفنا مبلغ صحتها

١ — تحاشي الخلاف الاول مع زوجكِ ، ولكن اذا لم يكن بدٌّ من حدوثه فاعملي على الخروج منهُ منتصرة لان انتصارك الاول يرفع قدرك في عين رجلك

٢ — لا تنسي انكِ تزوجتِ رجلاً لا الهاً ، فتسامحي عن نقائصهِ

(١) نشرنا ص ٣٦١ وما يليها من هذا العدد بعض وصايا العرب للزوجات ورأينا ان نترجم للقراء والقارئات هنا للمقابلة وصايا وضعها أحد الكتاب المحدثين